# خطى فراشة: خطى لآلام في دروب الغربة

بقلم: رنا صباح خليل/ العراق

عند قراءة المجموعة القصصية (خطى فراشة) لعباس داخل حسن الصادرة عن دار الجواهري يتبادر الى الذهن ان القاص قد تفاعل عبر نصه الادبي مع مخزونه الفكري والنفسي والذهني وتمازج تكوينياً مع الذاكرة؛ مستودعه الذي تتراكم فيه الاخيلة والافكار والصور وتتواشج فيه المعاني وتزدحم لديه التعابير، وما ذلك كله الا تداعيات تنساب بتلقائية يستجيب لها الابداع القصصي عند القاص لينشيء مبتكره الابداعي الجديد وعليه بصمات ضمنية او صريحة لمخزونه الثقافي وارثه الفني الذي يتمثله ويخضع له وينصت اليه مستجيبا لنداءاته وتوجهاته ويعمل بتعليماته فهذا الارث تكون وصُقل بدوام المطالعة وكثرة الاحتكاك وحجم المدون في سريرة الانسان المعرفية.

إن القاص رسم مشاهد تجعلنا نعيش الماضي مثل يومنا هذا ومن ذلك تصويره لبستان زامل في مدينة الناصرية اذ يلاحق القاص فراشاته عبر اطفال صغار في تورية بليغة يوظف فيها ملاحقته للسراب في حياة كان طابعها سطوة الحروب على المكان، على المدينة التي شوهت بفعل تغير معالمها، لكنه استطاع بفعل ايقاعه النفسي ان يضيف الى ما يصفه من اوجاع نشوة التحليق بفرشاة فنان طبع روحه بمهارة في حالة لونية فريدة على الورق جلّها يحيلنا الى ثوابت يؤمن بها وكأنه يقول للمتلقي حين يصف مدينته في قصصه، انت لا تذهب حين تذهب عن مسقط رأسك الا لتعود اليه عبر الحنين وعبر الذاكرة فما نراه في قصته بطاقة تعريف، كأن ابطاله امتدادا علنيا لحياته الشخصية المتأثرة كثيرا بمراتع الطفولة واماكن اللعب تحت الجسر او بين خنادق الجيش في قصة اخرى وهو بذلك يلجم فكرة تجيش بالمشاعر والحنين الى ايام خلت لصالح الارتفاع بوتيرة العاطفة، فضلا عن انشغاله بتكثيف السرد كي يتخلص من مأزق قلبه وهو ينظر الى كاظم صديقه الجندي الذي يجلس على مقربة منه لينظف بندقيته ذلك الجندي الذي يكبره سنا وخبرة جعلته هو واصدقاؤه الجنود يحتكمون اليه في الملمات والشجارات، غير هذا فهناك سكون عميق يحيط الملجأ وعتمة شاحبة واشياء متناثرة من جعب وعتاد وخوذ وبنادق وبمفارقة جميلة من لدن القاص يفاجئنا بوجود صورة جميلة لفتاة رسمت على ورق مقوى ترجعه عبر فلاش باك الى ايامه الخوالي إن المكان أو المدينة التي يصفها القاص في اغلب قصصه هي مركبة في جميع حالاتها من المكان الاصيل الذي

ولد فيه القاص وتربى على ارضه ويحمله في جوانحه وبين المكان الذي يحل فيه أو يصفه وهو حين يحن لمكانه الاصلي يستذكر ايام طفولته ويمررها باستذكاراته لأطفال صغار يرسمون على الحيطان عند خروجهم من المدرسة في قصة (ثلاث نخلات) وبرسوماتهم البريئة تلك لثلاث نخلات يجترون احزانه التي لا تبرح ملاحقته وهو بعيد مغترب

في قصة (عزاء) يتحذلق القاص على القارىء كي يعيده الى مدينته بعدما تركها عبر وريقات مختلفة للقص فيأتي الحديث عن الناصرية مدينته موصوفة على لسان شيخ هرم بقدرة هائلة وعجيبة على تبيان ما اصاب المدينة من نوم وسبات بعدما كانت حلّة للجمال(تاركا خلفه مملكة عظيمة متهاوية اختفى بها كل شيء محيت قصورها وضاعت ردهاتها التي كانت تفوح بالعنبر والبخور وقهقهات الجواري والعبيد من كل أصناف وألوان البشر وحمامات (الحرملك) والخانات والاسطبلات والاسواق المكتظة والمآذن الشامخة شاخت وتهالكت واصبحت اثرا بعد عين واختفى موكب زبيدة الى الابد من دون وصيفات وبلا حاجب أو حامل الخف ولا طبول ولا حرس ولا عزاء أو ذكرى مدينة فرخ وباض بها الجنون وافترست ساحاتها جموع الشحاذين والمرضى.) ص 58 والقاص هنا استلهم كقصاصين وروائيين كثر من مدينته رؤاه وذكرياته وزمنه الجميل ومن ذلك احدى ابداعات العراقي محمد خضير في(بصرياثا) و(مدينة الضاد)لمؤنس الرزاز و(عائد الى حيفا) لغسان كنفاني وغيرهم الكثير الذين اغواهم القص ليسجلوا لقطات بعين ذات عمق وحساسية عالية تخلد المنظورات والاماكن وتجعل من المتلقي يتفاعل معها ويحسّ بها وكأنه يعيشها ويحل في اروقتها ولا نبالغ ان قلنا وكأنها سيرة لذاته

تميز القاص بأسلوبه الواقعي مع الاخذ بتهويمات خيالية بسيطة هنا وهناك في مجموعته على الرغم من ان اختيار الحدث الواقعي هو ما يستثيره بشكل كبير في القص بلغة واضحة الدلالة تعبيرا وبناءً ومقصداً وهو اذ يتناول مدينته ويزيد في التنقيب عن اسرار الحكاية فيها وعنها هذا انما يكون على انفتاح رؤيوي في قصة (شتيمة) ليتجول عبر سرده الشفاف برومانسية عالية ويقف قبالة بحيرة(راتنن سوفانتو) ضمن ساعة تسكع يصف فيها الهدوء والسكينة وصوت النوارس على الرغم من نعته في اول القص بـ (نحن الارقام المضافة الى سكان البلاد المتجلدة نمارس التسكع....)ص 47 فالغربة ديدنه والاغتراب عالمه حتى وان تمتع بأجمل المناظر على الرغم من ذلك التآلف الظاهري الذي يكمن في جوهره ويكشف عن روح محدقة في الاعماق الى المدينة الام رافضة حالة الالتحام والتأقلم المفروض على ماهية البطل

تقنية التبعثر لدى القاص في موضوعات قصه

التبعثر لديه ميزة لافتة يستدركها القارىء بقدر ما يلاحقها ويتنصل منها بقدر ما يوسع لها من مساحات أفق القراءة في قصه في (نحيب الشموع) تتبعثر لديه الرؤى في مشاهد

فيها من التراكم الطقوسي والمعتقد الديني الكثير صوره القاص ضمن لوحة لمدينة تحكي بصيغة منكوبة بزمنها المهدور بغائبيها ونذور امهاتهم وحبيباتهم وكأن تلك النذور شواهد كثيرة والشهود قلة ومنهم ذلك الشاهد المتخفي خلف نصه واقصد به القاص الذي اختمر لديه النص في ذاكرة سليمة خارجة من جروح الحدث ومتورمة الماً في دماملة على اجيال وسنين منعتقة من سراب العودة للغائب ومنفلتة من غبار الزمن الذي اضفى على صواني النذور واواني الحناء المنسابة في النهر لونا محفوفا بالأمل والالم لتتراءى فيه الاسرار وكأنه عين سحرية وشاشة تتنقل ضمن بانوراما تلك المناسبات الدينية التي يتبعثر فيها القاص ما بين مدلولاتها فجميعها تفضي الى احزان وامان منتظرة فهو لا يعلم ان كانت تحكي مقتل سبطي الرسول محمد عليه الصلاة والسلام او مولد زكريا عليه السلام فالأمر سيان والنذور قائمة اما الغائب فلا عودة له وما افاريز القص تلك الا انحناءة تبجيل لأحلام تعاني البقاء الصعب والانتظار المميت وتتوسل بقوارب النجاة التي تعاني العطل في كل مكونات وإرثيات مشهدية المكان ضمن مدينة يكرر القاص انها اضمحلت وحلت محلها رؤى الحرب والدمار والخراب الذي افسد كل جمالياتها.

ينتقل بنا القاص ضمن تقنية تبعثره ما بين وصفه لشخصية جاسم زرافة في قصة (سيرة السيد زرافة) ذلك الشخص الغبي ذو الرقبة الطويلة الذي خدم في الجيش وكان من الصعوبة ان يجد بسطالاً يكفي قدميه واصبح مثاراً للضحك لكل من رآه وهو في زي الجندية، هذا الزرافة اشتغل عليه القاص ليكون مرآة لنماذج تقلدت الحكم بعد السقوط واصبح لها صيت وباع طويل في ادارة شؤون البلاد وبالتالي كتابته للمذكرات التي تصف ولا تعرف الكذب، هنا اجد ان هذه الشخصية التي بنى عليها القاص مبناه الحكائي مملوءة بالفراغات على الرغم من عمقها النصي ذلك ان من مآخذي على القاص سرعة عمله الذي يختلط فيه كل شيء والكتابة السريعة تجعله يسرع بالخوض في غمار العمل مضيّعا على المتلقي فرصة اللهفة ومتعة اقتحام التفاصيل الصغيرة التي تصنع فنية الحدث فالنهايات لديه في حالة قفز مشهدي غالبا وهو ليس لصالحه او لصالح العمل.

قلنا إن القاص لديه قدرة التبعثر وما اقصده بالتبعثر هو تشتت الافكار في موضوعات عدة ضمن ثيمات قصه وهذا التبعثر يحيلنا الى الانتقال من ثيمة لأخرى في تقنية سردية آخذة بالقارىء لينصت للقاص في وصفه لحصان يمتلكه الغجر ليوظفه ثيميا في تكريس مفهوم فقدان الهوية لهؤلاء الناس الذين ليس لديهم حق ملكية عقار او حملهم لاوراق ثبوتية، فاشتغاله على المفارقة في لفت الانتباه الى ان هؤلاء الناس حتى حصانهم ليست لديه قيمة وان كان حصانا اصيلا وان فاز في رهان فهو تابع للغجر واصله مردود اليهم، ويزجنا القاص ضمن تبعثره ليصور لنا فتاة خريجة تبحث عن عمل في قصة(البحث عن وظيفة) أو عاهرة تريد ان تعمل في عهرها الى ان تجمع المال وتسافر

بعدما اخسرتها الحرب كل اهلها ذلك في قصة (من رأى الشيطان) أو يقوم بارغامنا على الولوج داخل اروقة الاجتماعات الخاصة بالطبقة الراقية واختيارهم بنات للخدمة (في قصة (حديث قهرماني

قصص أخرى ولحظات خاطفة

سكب القاص من وجوده وفكره وتآملاته الفلسفية والوجدانية الشيء الكثير الذي يستمد تجلياته من اليومي الراهن المعيش ويوسع له مكانا في قلبه، يكتب كما يتجول في باحة بيته، كما يشاهد فلما يحبه او كما يأكل ويشرب ولأنه لا يعتمد على مرجعيات اكاديمية في قصه الذي يدخل ضمن حدود القصة القصيرة جدا اجده يحتضن قصصه ويلاحق سرابها شأن واقعها برغبة الاستزادة من روائح التجارب الحياتية، ولو تساءلت بشأن ما يكتبه عباس داخل حسن اجده يخص تحديدا الموقف، الشخص، المكان واللافت حقا انه يستطيع ان يحسب حسابا دقيقا لجماليات النص وهو يلاحق الفكرة التي يعنيها التي تغذي نتاجه الادبي ويكون الحدث فيها غاية عليا يضمرها النص على الرغم من عدم اكتراثه بصناعة الصراع أو التصعيد الدرامي فالتصاعد البنيوي لديه يعتمد اساسا على ايقاع نفسي متفاوت صعوداً ونزولاً ففي قصة (خيانة افتراضية) يستمد القاص بناءه الفني باعتماده على التصاعد التأزمي الحاد بين الشخصية الرئيسة تلك الفتاة التي تعرفت عبر مواقع التواصل الاجتماعي بموسى ومقدار تعلقها بالحديث معه وبين الحدث الذي اجج القصة بالانفعالات النفسية الحادة نتيجة انقطاعه المفاجيء لها من دون ان تعلم لذلك سبباً وبما ان الشخصية لدى القاص يحكمها معلّق كلي على الحدث وبما انها تمتلك حرية تمكنها من الخروج بآمان من سلطة راويها فهي اي تلك الفتاة تعود لحياتها السابقة باعتيادية على الرغم من ذلك الطارئ الذي بدد شيئا من وحدتها المضمرة التي لا تعلنها ولكن يشار اليها في خفية حاذقة من لدن القاص عن طريق ابنة اختها التي تهديها كوبا مكتوبا عليه اسمها بعدة لغات ليكون هدية عيد الحب وهذه الثيمة التي يضمرها القاص في نصوصه نجدها تتوزع على شخصيات القص بعدة وجوه ويكون ديدنها السراب دائما ومن ذلك ايضا قصة (ربما من عطارد) التي يكون البطل فيها ذا استثنائية عالية وروحا مطواعة للانسلال من هم الوحدة بتوهم ورود الرسالة الفارغة اليه من كوكب عطارد وجزافاً احسّ بتلويحة حب تحيط الرسالة كحلم جميل في قصة (اتهام غراب) يستكين لهموم امرأة تعاني من قصور زوجها في حقها ويوظف لتبيان ذلك قصة ضياع دمية ابنتها التي اتهموا الغراب بسرقتها وباعتقادي ان ما وراء النص في القصة يخبرنا أو يسألنا لماذا اصبح الغراب متهما بعدما كان في ارثنا الديني يعلمنا كيف يواري سوءة اخيه في قصة قابيل وهابيل عليهما السلام فما الذريعة في اتهامه دائما والتشاؤم منه وكأنه مذنباً، كانت تلك أخر قصة ضمن المجموعة اجد القاص فيها استطاع ان يفوّر في نصه سبك الدلالة ويثير شهية التحليق خلف المضمر والجواني الذي تبوح به اغلال سطوره وتدفع به اسئلته المزاحمة لفكره.

اخيراً لا تخلو القصص من السخرية التي اجدها ماثلة في قصة (الواعظ) ذلك القادم الى القرية مرتين كل عام ليعظهم ويستمع لأسئلتهم التي حفظ الاجابة عنها حتى الحمير التي كان يركبها الواعظ فهي مكررة ومشحونة بالاستخفاف والسفه الذي ما اختلف عليه واعظ آخر سوى ان احدهم كان لا يعظ أو يستمع للاسئلة وانما يدعو للناس فقط ويجتر دموعهم في ابتهالات لا تنتهي وبهذا يمتلك القاص طاقة ابداعية كبيرة في التهكم بحيث تأتي الحكاية وتضع اصبعها على زيف الممتهنين للدين والممتهنين لعقول الناس السذّج لصالح مطامعهم ولكن المفارقة التي تدهشنا هي قدرة القص التي تعالج موضوعاً غاية في الايغال والعمق بطريقة مختزلة .

اخيراً إن المجموعة القصصية التي بين ايدينا هي نتاج سردي مهم ولافت في ضبط ايقاعات السرد وادواته والتحكم ببنية مسار الاحداث برغم بعض القصور الطفيف هنا وهناك .